من (الإمام الشيخ) حسن البنا.. الى (المفكر المجدد) جمال البنا (1 ـ 4)

أسئلة عصرنا ليست بحاجة الى الأجوبة التي أبدعها الفقهاء الأسلاف في العصور الغابرة والتي كانوا من خلالها يجيبون بقدر المستطاعٍ على أسئلة عصرهم .. وفي حدود معارفهم التي لا يمكن مقارنتها بالحجم الهائل من المعارف العصرية كما ونوعا في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والانسانية وغيرها .

نحن الآن لدينا من أساليب التصنيف والمعلومات و«الكمبيوتر» والمطبوعات وغيره ما يمكن أن نلم به وبكل حديث مما لم يدركه أي واحد من الفقهاء .. وبهذا نحل مشكلة كانت في أصل الفقه الإسلامي .. في أصل اختلاف المذاهب الإسلامية.. فالقضية ليست قضية أنّ الأسلاف كانوا أقدر، أو أكثر ورعاً، أو أكثر إيماناً.. أو أقدر نموذجاً.. الخ ، لا .. من الناحية النظرية ممكن جدا القول أنّهم كانوا في وقتهم هم الأقدر فعلاً، ولكن انتهى ذلك الوقت.. جاء عصر جديد بإمكانيات جديدة، بتحديات جديدة.. بمشاكل وهموم جديدة.. بقدرات ووسائل جديدة تمكننا من القيام بما كانوا عاجزين عنه من ناحية.. وبما لم يكن يواجههم ويتحداهم من ناحية أخرى.

هناك حقيقة هامة.. أنّ الإسلام من أيامه الأولى حتى من أيام الرسول، وعن عمر ابن الخطاب نفسه، عندما وجده الرسول يقرأ في صحائف من التوراة فأحمر وجهه، وقال : « قد أتيتكم بها بيضاء ليلها كنهارها » ظهر من الأيام الأولى اندساس الفكر الإسرائيلي في الوعي الإجتماعي الإسلامي.

من الغريب أنّ محدثاً مثل أبي هريرة الذي كان يهودياً ثم أسلم قبل عامين من وفاة الرسول، يروي أكثر من خمسة آلاف حديث معظمها كان ولا يزال السبب الرئيسي في خلافات وانقسامات وحروب المسلمين .. بينما لم يرو علي أو عائشة اللذان رافقا الرسول منذ بدء الدعوة سوى أحاديث بسيطة لم تتجاوز المائة وربما أقل .. كما أن أبا هريرة يروي عن كعب الأحبار ووهب بن منبه اللذين اسلما بعد وفاه الرسول !!؟ لأنّه في الحديث يجوز رواية الأكابر عن الأصاغر، ويوجد علماء يدافعون بشدة عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وشقيقه همام وغيرهم ممن اسلموا بعد وفاه الرسول.. فأندس فكر إسرائيلي كثير جداً، دخل في التفسير بوجه خاص، وفي وضع أحاديث معينة، يعني الفكر الإسرائيلي لا نجده في الحديث فقط ، بقدر ما نجده في التفسير أيضاً، فأصبح تفسير القرآن، مثقلاً ومشاباً، وملوثاً بأفكار إسرائيلية.

الحبيشي : أسمح لي بأن أقاطعك في هذه النقطة بالذات، أنا ألاحظ أنك عندما تناولت .. هذه الإشكالية أشرت إليها من حيث قدرة العقل الإسلامي، وقدرة العقل العربي في العصر الحديث على فهم الأصلين الرئيسين للإسلام وهما " الكتاب والسُنة " بما في ذلك الأحاديث، بعيداً عن ذلك السيف المصلت على الرقاب والذي يمنعنا من إستخدام العقل الى حد تكفير من يخضع النقل لميزان القرآن بالعقل ، حيث ينبري السلفيون المتعصبون بالقول : ((هل أنت أقدر على فهم الحديث من فلان.. وفلان .. من الأسلاف القدامى)) .

أنت ركزت على الوسائل فقط ، وركزت على التطور في تقنيات الوسائل التي تساعد العقل العربي، والعقل الإسلامي في العصر الحديث على فهم القرآن والسنة بشكل أفضل من الأسلاف .. ولكن لم تتكلم عن نقطة مهمة جداً، وهي الحياة التي يتصل بها الحديث .. والوقائع حيث يزعم هؤلاء السلفيون المنغلقون بأن الحديث نسخ بما أورده الرواة كثيراً من نصوص القرآن التى جاءت من عند الله ونقلها الينا رسوله الكريم عبر الوحي .

بجرة قلم تصبح آيات القرآن منسوخة بالحديث الذي نهى عن تدوينه الرسول في حياته، ثم نقله الينا بعض الرواة بعد وفاته بنحو مائة عام تقريباً وربما اكثر .. الحياة تغيرت يا أستاذ جمال، وأنت قبل لحظات كنت تشير وبشكل عام إلى جانب من هذا التغير .. الحياة كانت بسيطة .. المجتمع كان بسيطاً .. الاقتصاد كانت دورته بسيطة .. لكن الآن الحياة تعقدت .. ومشاكل الحياة توسعت .. وبالتالي لم يكن "أحمد بن حنبل" أو " أنس بن مالك، أو محمد بن إدريس الشافعي أو "أبو حنيفة النعمان" يواجهون عالماً مشابهاً لعالمنا الواقعي الحديث والمعاصر ، وكذلك كل العلماء والفقهاء بما في ذلك فقهاء المذهب الشيعي.. لم يكن أمام أولئك الأئمة الأسلاف هذا السيل الجرار من الاحتياجات والمشاكل المعقدة والتناقضات والتحديات المتواصلة والمتغيرة باستمرار، التي لم تكن في يوم من أيام تلك العصور السالفة متوقعة.

وعليه .. ومن أجل أن نثبت صلاحية القرآن لكل العصور نحن بحاجة الى قراءة جديدة ومعاصرة للقرآن تجعله قادراً على الإجابة على الأسئلة الجديدة.. هذه أسئلة جديدة في عصرنا بحاجة إلى أجوبة جديدة.. ولا نستطيع استعارة الأجوبة القديمة للرد على الأسئلة الجديدة التي تطرحها الحياة أمام الناس.

بمعنى ان أسئلة عصرنا ليست بحاجة الى تلك الأجوبة التي أبدعها ذلك الجيل من العلماء والفقهاء في العصور الغابرة والتي كانوا من خلالها يجيبون بقدر المستطاع على أسئلة عصرهم .. وفي حدود معارفهم التي لا يمكن مقارنتها بالحجم الهائل من المعارف العصرية كما ونوعا في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والسياسية والانسانية وغيرها .. واعتقد أنّه من الوهم أن نزعم بأنّ أجوبة فقهاء العصور الغابرة يمكن أن ترد على أسئلة العصر الراهن.

لاشك في أنّ القرآن قادر على أن يجيب على أسئلة عصرنا.. ولكن من هم الذين يتوجب عليهم إستنباط هذه الإجابات من القرآن ؟ .. أنّهم أبناء هذا العصر.

خذ يا أستاذي على سبيل المثال الإمام الشافعي.. نجد أنّه عندما انتقل إلى مصر أعاد صياغة مذهبه مرة أخرى من جديد.. وبصورة تختلف عن الأحكام والاجتهادات الفقهية التي صاغها عندما كان في العراق والحجاز.. وأرجو أن تلاحظ معي أنّه على الرغم من أنّ الزمان كان واحداً.. والإسلام واحد لكن المكان هو الذي تغير عند الإمام الشافعي.. بمعنى أنّ هناك مكانين في زمن واحد وفي ظل إسلام واحد.. وأنّ مجرد الاختلاف بين مكانين في ظل زمن واحد أضطر الإمام الشافعي رضي الله عنه إلى إعادة صياغة مذهبه مرة أخرى في مصر.. فكيف الحال عندما تتغير الأزمنة والعصور وتتنوع الأمكنة والظروف!!

القرآن كما قال الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ((حمال أوجه وكتاب مسطور لا ينطق بل يتكلم به الناس)) .. والناس عندما يتكلمون ويفكرون لا يفعلون ذلك بمعزل عن تنوع وتناقض أفكارهم وأفهامهم و مصالحهم،.. وتنوع ظروفهم وأوضاعهم.. أنّهم جزء منها .. وهي التي تتحكم فيهم .. وهي تؤثر عليهم وعلى طرائق تفكيرهم وعملهم .. وقديماً قالوا ان الفكرة والمصلحة وجهان لعملة واحدة.

والقول بأنّ القرآن صالح لكل زمان ومكان يضع أمام العقل واجبات كبيرة ودوراً طليعياً.. بمعنى أننا يجب أن نفهم القرآن بعقولنا.. ونعرف رسالته ومعانيه ومقاصده وتعاليمه بعقولنا.. وهذا يعني أنّ الذين شرحوه وعملوا على تأويله في القرن الأول الهجري وغيره من القرون الأولى لا يمكن أن يشرحوه ويعملوا على تأويله في القرن العشرين أو القرن الثلاثين.. صحيح أنّ مناهج استخدام العقل يمكن أن تتشابه وأن تتواصل.. لكن نتائج التفكير العقلي لاشك وأنّها تختلف باختلاف القضايا والتحديات التي يواجهها العقل في كل عصر.

من هنا نأتي إلى المسألة الرائعة التي ذكرتها في حديثك.. وهي أنّ الإسلام يريد الإنسان.. بمعنى أنّ ا لإسلام وسيلة وليس غاية.. الغاية الحقيقية للإسلام هي الإنسان.. تحرير الإنسان.. سعادة الإنسان.. ازدهار ورفعة حياة الإنسان.

أنت أشرت إلى أنّ الفقهاء يريدون الإسلام بينما الإسلام يريد الإنسان .. أسمح لي يا أستاذ جمال أن استفزك شوية .. وأرجو أن يتسع صدرك لهذا الاستفزاز.. ألا تعتقد معنا بأنّ هؤلاء الفقهاء الذين يريدون الإسلام ولا يريدون الإنسان هم جزء من تلك الماكنة الضخمة التي طحنت الإنسان ليس فقط باسم الإسلام ولكن باسم مختلف الأديان السماوية والمبادئ الإنسانية منذ ظهور سلطة الدولة على الأرض وحتى عصرنا الحديث؟

البنا : بالضبط هذا الكلام معقول وأنا أتفق معك في هذا الى حد كبير جداً .. وأنا أشرت، وقلت أنّه من العوامل التي أدّت إلى هذا، انتقال الخلافة الراشدة الى الملك الوراثي العضوض.

عندما انتقلت الخلافة ، من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض طورد العلماء .. هناك ظاهرة غريبة جداً ومثيرة للدهشة والإنتباه وهذه الطاهرة تعد من حقائق تاريخ الاسلام والمسلمين ، وهي أنّ كل الأئمة الأربعة من أهل السنة وكل أئمة الشيعة دخلوا في صراع مع السلطة و من أجل السلطة .. وتعرضوا لإضطهاد السّلطة ، كلهم بلا استثناء .. الشافعي كان قاب قوسين أو أدنى من أن يُقتل .. وقف والسيف مصلت على رقبته ، وكان ممكنا جداً ـ لولا فلتة ـ أنّه يُقتل .. أبو حنيفة تعرض للصراع مع الخليفة "أبي جعفر المنصور" وقيل إنّ "أبا جعفر المنصور" صمم، لكنّه رفض القضاء، رفض أن يجئ إلى القضاء .. و أن يتولى القضاء ويحكم ضد معارضي الخليفة بما يريده الخليفة .. ودخل في مشادات عنيفة جداً حتى أنّ الخليفة " أبا جعفر المنصور" قال له : " أنت تكذب يا أبا حنيفة " .. فرد عليه أبو حنيفة قائلاً : " قد قلتها، إذا كنت أنا كاذباً فلا أصلح للقضاء.. وإذا كنت أنا صادقاً.. وأقول إنني عاجز فلا أصلح للقضاء ففي جميع الحالات لا أصلح للقضاء".

أما الإمام مالك فقد ضرب حتى خلعت أكتافه .. وأحمد بن حنبل تعرض للمحنة الكبرى .. وجلد بالسياط بمئات المرات .. وفي تاريخ إخواننا الشيعة الكثير من مآسي الصراع على السلطة وهو ما يُستدل عليه من تاريخ الفرق الشيعية التي تناحرت على السلطة بعد أن وصلت اليها عقب نجاحها في إقامة دويلات وسلطنات لملوك وأئمة الطوائف على أطراف دولة الخلافة . . . بعضهم مثل الامام " زيد بن علي" مثلاً : أراد الثورة، وفضل الثورة، وقام بسلسلة الثورات التي نعلمها جميعاً وكانت مشاهد رائعة في مواصلة الكفاح .. زيد يقتل ويصلب وتقطع رأسه .. ابنه الثاني يقتل أيضاً.. سلسلة من الأبناء والأحفاد كل واحد منهم يثور، ثم يُهزم ويُقتل .. وكان هذا الجهاد فرض عيّن فعلاً .. أما جمهرة الفقهاء فآثروا أن يكافحوا في ميدان جديد، هو العبادة، و تفرغوا لهذا.. ومن أجل هذا مثلاً نجد إنّ باب الصلاة في مسند الإمام أحمد بن حنبل يأخذ أكثر من جزأين من ستة مجلدات .. أو في الفتح الرباني الذي هو شرح المسند 7 مجلدات من 24 مجلداً، هذا عن الصلاة .. في حين أنّ الصلاة ممكن جداً أن يتم شرحها وبيان احكامها في صفحتين أو ثلاث، لأنّ العملية عملية نية أولا وقبل كل شيء .. وعملية أركان معدودة، ووسيلة أداء معروفة .. أما ما عدا ذلك من تفاصيل، ومن جزئيات تتعلق بالحيض والنفاس، ما كانت من صميم الإسلام .. ولكن ماذا فعل العلماء ؟ .. كرسوا كل النشاط الفقهي والفكري لإنتاج مجلدات ضخمة! حول جزئيات صغيرة !! .. هذا هو ما أعنيه بأنّ الإسلام أراد الإنسان والفقهاء أرادوا الإسلام .. بمعنى هذا الجانب من جوانب الإسلام الذي ركزوا عليه بعد أن سدّت أمامهم المنافذ للمنطلق الحقيقي للإسلام وهو الحرية.. الكرامة والعدالة للإنسان.. بمعنى إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور.. هذا هو الإسلام الحقيقي.

كل الأئمة العظام أمثال احمد بن حنبل والشافعي وابو حنيفة ومالك وزيد بن علي وآخرين دخلوا في صراع مع السلطة، لأنّهم كانوا يريدون ما أراده الإسلام ، وهو الإنسان بمعنى الحرية والعدالة ، والإنسان بمعنى الغاية ، والإسلام بمعنى الهداية، والإسلام بمعنى الانطلاق من الظلمات إلى النور .. بينما كان غيرهم يريد التحكم بمفاصل السلطة وخزائن الخراج والزكاة والسلاح تحت مظلة الاسلام .. كل هذه المعاني نجدها واضحة في القرآن ولكن حيل بينهم وبين هذا، فلم يجدوا مجالاً .. كان الخيار الصعب جداً، أنّهم يثورون .. الثورة ستؤدي إلى نوع من الفتنة، وإلى الفوضى .. معظمهم آثر الموقف السلبيّ إزاء الحكم على أساس أن يعوضوا ذلك بالتركيز على العبادة في محاولة إصلاح الفرد عن طريق العبادة

نحن الآن في عصر أتيحت لنا فيه فرص لم تكن متاحة أمام الفقهاء .. يعني فكرة الملك الوراثي العضوض .. فكرة الحاكم بأمره ، فكرة "الحجاج بن يوسف" في العهد الأموي، وفكرة "أبي جعفر المنصور" في العصر العباسي، كل هؤلاء الذي حكموا بالسيف، وكل أفكارهم لم تُعد مقبولة في هذا العصر الحديث .

في حقيقة الحال أصبحت لدينا طاقات ومنافذ وأبواب متاحة بحيث يمكن للشعب، ويمكن حتى لأقل أفراد الشعب أن يرفع صوته، ويكون له أثر في تغيير الوضع وتغيير النظام السياسي.

الحبيشي : أستاذ جمال، أسمح لي أن أتدخل قليلاً في إعادة صياغة الفكرة التي عبرّت عنها .. أنت قلت إنّ الإسلام يريد الإنسان، ولكن الفقهاء يريدون الإسلام .. أسمح لي أن أقول .. ولكن الفقهاء كانوا يريدون السلطان ولم يكونوا يريدون الإسلام، وسأعلل ذلك بالآتي :

منذ ظهور الملك العضوض الذي تكرّمت بالإشارة إليه.. ذلك الملك العضوض الذي جسد ظهور أول دولة استبدادية ملكية وراثية في الإسلام وارتبط بالانحراف عن مبادئ الشورى وتجميدها.. بل وتغيير مبادئ الشورى التي تحولت الى وسيلة لصناعة فتاوى فقهية تبرر سياسات أهل الحكم وتمنحها الشرعية ، أو مناصحة غير ملزمة على قاعدة الإعتقاد بأن الله يزع في السلطان ما لا يزع بالقرآن ، فيما تحول الحكم إلى ملك وراثي نتجت عنه فكرة ولاية العهد .

صحيح بالمقابل أنّ إرادة الإنسان في الحرية هي إرادة أقوى من أي شيء وأنّ الإسلام جاء ليفجر هذه الإرادة ويحميها، وليؤصلها، وليفتح أمامها آفاقاً كبيرة حيث تجسدت تلك الإرادة بالثورات الرائعة التي تكرمت بالإشارة إلى مشاهدها ضد الظلم وضد الاستبداد..بالمقابل جاء بعض فقهاء الإسلام بأفكار تبرر الاستبداد، وتبتعد كثيراً عن الإسلام بقدر ما تقترب إلى السلطة والسلطان.. ومن هذه الأفكار – على سبيل المثال – لا الحصر، فكرة الخضوع للحاكم الجائر، ووجوب الصبر عليه ، ووجوب طاعته ما أقام في الناس الصلاة ، وما لم يظهر كفراً بواحاً .. وكذلك أيضا القكرة التي تقول بأن الحكم الغشوم أفضل من فتنة تدوم .. وإن من قويت شوكته وجبت طاعته .. هذه الأفكار الفقهية معروفة.. والغريب في الأمر أنّ هؤلاء الفقهاء بالذات .. وهذه المدرسة في التفكير بالذات .. هي تلك التي أشرت إليها بأنّها أغرقت المكتبة الإسلامية بكتب ضخمة عن الحيض والنفاس ونواقض الوضوء والزواج والطلاق والزكاة والخمس.. الخ، ولم تغن المكتبة، وبالتالي لم تغن العقل، ولم تغن الفكر الاسلامي بالمسائل المتصلة بالحياة وبالعلوم المرتبطة بتطور الحياة والحضارة المدنية والتي جاء الإسلام من أجلها .. بمعنى الإسلام الذي يريد الإنسان بحسب تعبيركم الرائع، ولكنكم قلتم إن الفقهاء يريدون الإسلام .. وواقع الحال، وتجارب التاريخ أيضاً تقول لنا إنّهم كانوا يريدون السلطة وخدمة السلطة بدليل أنّ الوعي الإسلامي اختزل تعبيراً متوارثاً عن ما يسمى " بفقه السلطان" وفقهاء السلاطين .. بمعنى أنّ هؤلاء لم يسهموا في إبداع فقه الإسلام.. لأن الإسلام الحقيقي هو وسيلة الإنسان لحياة حرة .. حياة كريمة تتوفر فيها ضمانات حقوق الإنسان نجدها في القرآن .. وهو أداة الإنسان لأن يحرس بها هذه الحياة في حال تحققها .. ولكن هؤلاء تحت زعم حراسة الدين وحراسة الإسلام كانوا يحرسون السلطة ويحرسون مصالحهم فيها .. كانوا يحرسون مصالحهم الطفيلية التي اكتسبوها من خلال منافقتهم للسلطان وابتغاء الحصول على رضاه والنجاة من سيفه والفوز بذهبه .. ألا تعتقد معي يا أستاذي أنّ ثمة بوناً شاسعاً بين القول بأنّ أولئك الفقهاء كانوا يريدون الإسلام وبين القول بأنّ أولئك الفقهاء كانوا يريدون السلطان؟

الفقهاء الأسلاف ليسوا معصومين، و قدراتهم مهما كانت فإنها ليست مطلقة ولا نهائية.. كما أنهم في نهاية المطاف أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصرنا!!

البنا : هذا صحيح فعلاً، لكن يمكن التفرقة ما بين الجيل الأول من الفقهاء الذين وجدوا أنفسهم في مأزق أمام الثورة على السلطان الجائر وحاولوا الخروج منّه إلى حد ما .. يعني مثلاً : ابو حنيفة.. أبو حنيفة أيّد زيد بن علي الذي كان من أقرب أهل الشيعة الى السنة .. وقدّم له معونة مالية، وقال : " لولا ارتباطاته كنت معه " ، الفراء كلهم كانوا في جيش زيد، وشبهوه ببدر، ففي جانب منهم فعلاً أراد الثورة على الظلم، ولكن الظلم كان تأسس .. الظلم أصبح له هيكله .. وله الجيش المحترف .. وله الثروات كلها .. وله التنظيم الإداري .. أستطاع الظلم بآليات الحكم ..أن يقهر كل محاولات الثورة عليه ولذلك نجد أنّ الثورة تبدأ بجيش من أربعين ألفاً ويتسلل فيه الضعف شيئاً فشيئاً وينتهي بأنه أصبح أربعمائة.. فيبدو أنّهم اقتنعوا بأنّ كل ثورة على النظام القائم مهما كان سيئاً فإنّها ستفشل ولن تؤدي إلا إلى مزيد من الديكتاتورية والتحكم.

هناك جانب آخر .. أنّ تلك النظم الظالمة في الداخل كانت تعمل لنشر الإسلام في بقية الدول .. يعني مثلاً : الدولة الأموية.. الفتوحات الإسلامية فيها جاوزت الهند، ووصلت إلى مشارف الصين .. لعل هؤلاء الفقهاء أيضاً تنبهوا الى أنّ هذه النظم مهما كانت ظالمة ، فإنّها تعمل من ناحية أخرى لنشر الإسلام في أراض جديدة .. وفي بلاد جديدة، وتكسب مسلمين جددا.. فكأن هذا من العوامل التي أثنتهم شيئاً ما عن المقاومة .. هذا بالنسبة للجيل الأول فعلاً الذي وضع موضع الاختبار المؤلم .. فكان له بعض المبررات في الاستسلام ولكن بالنسبة للأجيال الأخرى في أزمنة لاحقة.. فقهاء السلاطين هؤلاء ليس لهم أي عذر.. هؤلاء عملوا فعلاً لدعم الحكم ودعم الظلم وهيمنة الحكام على الجماهير.. وقدموا فهماً تعسفياً للآية التي تقول " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" .. الخ.

هل يوجد إجماعٌ حقاً؟

الحبيشي : عندي ملاحظة عرضية على كلامك يا أستاذ .. عندما أشرت إلى أنّ العلامة أبي حنيفة النعمان، كان قد وقف إلى جانب زيد بن علي وإلى جانب الحركات الفكرية التي قاومت الظلم والاستبداد والطغيان.. اعتقد أنّ هذه القضية يجب أن نتناولها بتأصيل تاريخي.. فمن المعروف أنّ أبا حنيفة النعمان كان من مدرسة أهل الرأي والقياس بل ومن مؤسسي هذه المدرسة ذات الاتجاه العقلي في التفكير.. بمعنى أنّها مدرسة تنزع نحو العقلانية والتفكير الحر والارتباط بالواقع ومحاولة اكتشاف الواقع بواسطة العقل.. وكان زيد بن علي يسير في هذا الاتجاه بسبب تأثره بفكر المعتزلة .. وقد تعرض أبو حنيفة النعمان لاضطهاد كبير من قبل الحكام ومن قبل فقهاء الحكام حتى أضطر إلى الصمت .. بينما واصل زيد بن علي وهو الفقيه والعالم.. واصل مقاومته للطغيان حتى الشهادة.

وبالنظر إلى أنّ الحكام وفقهاءهم كانوا يشنون حرباً ضد الاتجاهات العقلانية في الفكر الإسلامي آنذاك .. فقد كان طبيعياً أن تتعرض مدرسة الرأي والقياس التي ارتبطت بالامام أبي حنيفة لهذه الحرب أيضاً.. خصوصاً وأنّ مذهب الرأي والقياس عند أبي حنيفة كان يتصادم مع ما ذهب إليه فقهاء نجد والحجاز الذين حصروا المدارك في النصوص والإجماع.. وتحديداً في نصوص وإجماع من عرفوا بأهل الحديث في المدينة.

كان أبو حنيفة يرى أنّ دليل الإجماع لا يخص أهل المدينة وأهل الحجاز ونجد فقط ، ولا يتوقف عليهم فقط دون غيرهم .. بل هو شامل للأمة التي تتنوع ظروفها وبيئاتها ومعارفها وتجاربها ومصالحها وعصبياتها.. وكانت المصالح والعصبيات كما يقول ابن خلدون تبحث لنفسها عن شرعية السلطنة مدعمة بشرعية في الفقه.

ومن المعروف أنّ صوت أبي حنيفة توقف بسبب ما عاناه من ظلم واضطهاد على يد سلاطين الحكم وبمؤازرة من فقهاء السلاطين.. ومن المعروف أيضاً أنّ المذهب الحنفي أضحى تهمة توجه لكل معارضي الفكر السلفي النقلي في العصور الأخيرة .. والذين كانوا ينادون بإعادة الإعتبار للعقل .. ولكل دُعاة التغيير والإصلاح من أهل السنة .. حيث كان كل هؤلاء يتعرضون للمحاكمات وتصدر بحقهم أحكام قضائية (شرعية) بتهمة الكفر ويتعرضون للإعدام والصلب بموجب حد الردة الذي لم يرد في القرآن بل جاء في حديث ظهر في العهد الأموي بعد أكثر من مائة عام على وفاة الرسول واستفاد منه الحكام العباسيون وطبقوه على نطاق واسع .. وقد إختلف حول صحته الفقهاء بينما استفاد منه السلاطين وفقهاء السلاطين الذين استخدموه كغطاء ديني لتصفية معارضيهم الذين كانوا دائما من العلماء والفلاسفة والمفكرين .. كما استخدمه في العصر الحديث االنظام الإمامي المستبد في اليمن عندما أقام محاكمات صورية لقادة ثورة 1948 الذين سعوا من داخل الطبقة السياسية الحاكمة الى إقامة نظام ملكي دستوري .. حيث وجهت إليهم تهمة السعي لتحريف القرآن بعد فشل ثورتهم التي لم تستمر أكثر من بضعة أسابيع !!

على أية حال أستاذ جمال الحديث شيّق معك .. وارغب في العودة إلى قضايا الحركة العمالية.. والى قضايا الإنسان العامل.. وقد أعجبني تعبير الإنسان العامل الذي تردد في كثير من كتبك ومؤلفاتك.. وهذا التعبير تردد أيضاً على لسان العديد من المفكرين الإشتراكيين أكثر من مرة في العديد من مؤلفاتهم .

وبهذا الصدد أريد أن أسأل عن المؤثرات الفكرية والعملية في حياتكم الشخصية والتي جعلتكم تقتربون إلى قضايا النقابات وقضايا العمال .. علماً بأني لاحظت في بعض مؤلفاتك، وخصوصاً كتابك الرائع "سقوط جمهورية فايمار" .. لاحظت أنّك متابع عميق لتاريخ الحركات الاشتراكية في العالم.. بل وحتى لتاريخ الفكر الماركسي.. وعندما قرأت هذا الكتاب استرعى انتباهي غياب الخصومة التي نجدها في مؤلفات بعض المفكرين الإسلاميين حول الموقف من الماركسية بشكل خاص والفكر الاشتراكي الديمقراطي بشكل عام .. في الحقيقة وجدتُ نفسي وكأنني اقرأ كتاباً نقديا حول الاشتراكية لكاتب غير إسلامي.. على الرغم من أنّ الكتاب ينطوي على نزعة نقدية حادة للماركسية .. ولكن حتى هذه النزعة الانتقادية للماركسية نجدها أحياناً في مؤلفات لكتاب اشتراكيين .. وكُتاب ماركسيين ينقدون بعض جوانب النظرية الماركسية.

ولقد دهشت لما سمعته على لسانك في لقائنا السابق قبل بضعة أيام في مدينة نصر شمال القاهرة في منزل احد الاصدقاء السودانيين ، بأنّك تحترم بعض الاكتشافات النظرية العلمية لماركس .. والتي كانت تعكسُ جهوده واجتهاده كعالم سياسي واقتصادي واجتماعي في ظروف تاريخية محددة.

حبذا لو تتحدث يا أستاذ جمال عن المؤثرات الفكرية والعملية في حياتك والتي جعلتك تبحث عن تأصيل إسلامي لهذه الاهتمامات العمالية؟

البنا : شكراً لك .. قبل أن أبدا في الحديث عن هذه النقطة أريد أن أعلق تعليقاً سريعاً على ما أشرت إليه حول موقف أبي حنيفة.

أبو حنيفة في حقيقة الحال ظل ثابتاً على موقفه.. وكما ذكرت لكم فإنّه رفض القضاء لأبي جعفر المنصور.. وكان هذا في آخر حياته.. ولعل ذلك السبب هو الذي أنهى حياته.

بجانب أبي حنيفة هناك الإمام مالك.. وطبعاً مالك لم يكن من مدرسة الرأي.. ومع هذا فإنّه اصدر المبدأ الخطير جداً " ليس على مكره يمين" والذي كان المبرر لنزع بيعة عبدالملك بن مروان عندما ثار عليه محمد وأخوه (النفس الزكية) وقالوا : في عنقنا بيعة فقال : «ليس على مكره يمين».

كانت هذه الفتوى أشد نفاذاً من جيش كامل يمكن أن يجنده ملك .. فكان هذا هو موقف الأئمة والفقهاء الأوائل .. وأنا أقدّر موقفهم إلى حد كبير، لأنّهم وضعوا في خيار صعب جداً، فاختاروا الأقلّ ضرراً فيما رأوه .. في حين أن زيداً مثلاً اختار الثورة، واختار المقاومة كائنة ما كانت على أساس مبدئه.

بالنسبة للمؤثرات وغيرها، طبعاً أنت تعلم إنني نشأت في أسرة عريقة إسلامياً .. هذه البيئة يمكن أن توجد استسلاماً وتبعيةً.. كما يمكن أن توجد أيضاً موقفاً جدلياً ـ كما يقولون ـ ليس موقف التسليم باستمرار .. نفس هذه النشأة يمكن أن توجد موقفاً معارضاً إلى حد ما .. هذا الموقف الذي وجدت نفسي فيه .. توصلت الى قناعة شخصية أنّه ليس الموقف الأمثل هو الاستسلام باستمرار، هو الإذعان دائماً .. ورأيت أنّه لابد من عرض كل القضايا على الفكر، فنشأ نوع من الاختلاف أو التباين، ما بين الفكر الذي وجدتُ نفسي فيه، والفكر الأخواني في هذه المرحلة .. وبدأت أضع تحفظات على الفكر الأخواني في حين أنّ الفكر الأخواني في هذه المرحلة كان يمثل قمة الفكر الإسلامي، وقمة التجديد الإسلامي، وأكثر مدارس الفكر الإسلامي مرونة.. وكان الأستاذ البنا رحمه الله قائداً موهوباً ونابغاً، ومن أفضل القادة الذين أنجبتهم الهيئات الإسلامية في العصر الحديث .. مع هذا كان هناك نوع من التردد أمام مسلمات الأخوان .. فكان هناك نوع من نفس هذا الموقف الذي كان من الممكن أن يوجد الجندي المطيع، الابن الوارث.. إلا أنّه أوجد موقفاً معارضاً إلى حد ما .. أوجد موقفاً ناقداً إلى حد ما .. كانت معركة بين الفكر التقليدي وبين ما نشاهده في العصر الحديث، وفي الحياة الحديثة من آفاق، ومن نتائج قد لا تتفق بالضرورة مع هذه المسلمات التقليدية الإسلامية .. كانت مرحلة صعبة فعلاً.. ولا أخفي عليك أنّه جاء وقت فكرت فيه بضرورة البحث عن فكر جديد خارج الإسلام وذلك بسبب تعصب وتزمت واحتكار المشايخ للإسلام.. ولكني فشلت.. أبى الله إلا أن أفشل.. وكان لا مفر من الإسلام إلا إلى الإسلام ، ولكن بعد تحريره من سلطة ووصاية المشايخ والفقهاء.

ولماذا ندعه للفقهاء فقط ، وهذا إسلامنا، وفكرنا ، وعزنا ؟!. لماذا لا نحرره من سيطرة الفقهاء؟؟.

سلطة الفقهاء

الحبيشي : هل تقصد تحريره من سلطة المشايخ والفقهاء، وليس من فقه الفقهاء .. بمعنى أننا بحاجة إلى فقه الفقهاء ولكننا لسنا بحاجة إلى سلطة الفقهاء ؟

البنا : نحن في الحقيقة موقفنا من الفقه التقليدي، ومن الأسلاف، ومن كل ما يجري بحكم العادة ليس موقفاً رافضاً .. لأننا نجد أوروبا مثلاً حتى الآن تعتمد على الفكر اليوناني حتى عندما تسمي «ألفاظها ».. عندما تسمي سفينة فضاء.. وعندما تسمي مركبات فضائية؛ فإنّها تستعير أسماء يونانية كلها مستوحاة من الفكر اليوناني القديم.

فنحن لا نرفض ولا يجب أن نتقوقع داخل قوالب عتيقة وجامدة بذريعة الدفاع عن اللغة العربية والخصوصية الاسلامية .. أنظر الى القرآن تجد أنه أورد كلمات غير عربية .. وهناك كتاب كامل عن الألفاظ غير العربية في القرآن .. نحن لا نرفض الفقه التقليدي وكل الماضي .. ولكن نعتبره رافداً من الروافد .. فهو ليس الأصل الذي يكون علينا التسليم به من ناحية.. ومن ناحية ثانية نخضعه للنقد، فنأخذ منه السليم الذي ننتهي اليه ونقتنع به بحكم دراستنا، وبحكم اجتهاداتنا إلى أنّه سليم .. نأخذه ونقر به وما نجد أنّه لم يعُد يتفق مع هذا العصر لا نتردد في رفضه، خاصة ونحن عندنا الملاذ الأخير والحكم الأصيل وهو القرآن.

الخلاف الذي بيننا وبين أتباع مدرسة النقل يتمحور حول إنّهم يقولون ونحن أيضاً نقول بضرورة الأحتكام الى " القرآن" الذي هو كلام الله الذي نزل الينا عبر الوحي ..نحن نحتكم في النهاية الى القرآن.. ونفحص كل القضايا الخلافية بميزان القرآن .. وهم يحتكمون الى تفسير الفقهاء الأسلاف للقرآن وإلى الروايات التي جاء بها الرواة من أمثال ابي هريرة وكعب الأحبار وعبدالله بن عمر بن العاص وأصبحت غالبة على القرآن .. هم يستندون ويحتكمون إلى ما جاء في القرطبي، وما جاء في الطبري، وما جاء في ابن كثير، وما جاء في الخازن، وما جاء في الرازي.. إلى آخر هؤلاء .. ونحن نستند و نحتكم إلى نص القرآن .. ونرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإننا غير ملزمين بهذه التفاسير والروايات .

وبالعودة إلى المؤثرات التي سألتني عنها .. فالمؤثرات كانت إنني وجدت نفسي في دراسة جديدة للفكر الإسلامي انتهينا منها على نحو ما أشرت اليه في مستهل الحديث .. أنّ الإسلام هدفه الإنسان .. وأنّ التسلسل الذي جاء من الإنسان إلى العمل الى العمال له ما يوجبه .. فبدأت أعني بهذه الناحية ، من ناحية فكرية مجردة ثم جاء اعتقالي في ديسمبر سنة 1948م واستمر حتى يناير 1951م ، إذ قضيت سنة وبضعة شهور في المعتقل.

نعم في المعتقل بدأت أفكر تفكيراً ينزع نحو التطبيق إلى حد ما .. نحو العمل بعدما انتهينا إلى الفكر .. "طيب، أي جمهور يمكن أن يحمل هذا الفكر خاصة وأنّه كان لي تجربة سابقة في تأليف حزب.. وهو حزب العمل الوطني الاجتماعي سنة 1946م... وكانت تجربة فاشلة تماماً حيث اقتنعت بأنني لن أستطيع أن أكون حزباً أو هيئة خاصة وإني كاتب ومثقف .. وليس زعيماً جماهيرياً فيه مؤهلات الزعيم الجماهيري من خطابه، من لباقة، ومن منظر، ومن جماهيرية وربما نموذجية كاريزمية وقدرات مالية ... الخ.

الحبيشي (مداعباً) : ولكنك لبق يا أستاذ، ومنظرك جميل، وثقافتك واسعة و رائعة .. وأسلوبك في الحديث جذّاب؟

البنا : (يستأنف الحديث والضحك يتخلل كلماته قائلاً) :

كان يجب أن يكون هناك فعلاً جمهور جاهز، ومؤهل لحمل هذا الفكر.. في الوقت نفسه خلال دراساتي تعرضت للفكر الاشتراكي.. وجدت أنّ الفكر الاشتراكي فكر إنساني ما من شك في أنّه غني ببحوثه وبنتائجه .. وكانت الاشتراكية بالنسبة لأوروبا هي نوع من صحوة الضمير بعد أن فشلت المسيحية في إطلاقها .. بعد أن سيطرت الكنيسة على المسيحية وحوّلتها من فكرها الإنساني الى كنيسة .. كانت الاشتراكية في هذه الحالة تقدم المعنى الإنساني .. المعنى الروحي .. المثل الأعلى.

في حقيقة الحال كل المفكرين في يوم من الأيام في أوروبا كانت لهم بدرجات متفاوتة اتجاهاتٌ اشتراكية تبدأ من التعاطف حتى الإيمان.. ماركس ما من شك في أنّه مفكر عريق عميق نابغ عبقري.. يعني هم يقولون إنّ أنجلز كان نابغاً .. ولكن ماركس كان عبقرياً .. كما أنّه قدم الكثير في الفكر و حتى الآراء والتصورات .. هو أخطأ في كثير من الآراء .. مثلاً تصوّر أنّ الاشتراكية ستظهر في أكثر الدول الرأسمالية تقدماً مثل بريطانيا أو ألمانيا.. كانت النتيجة أنّها ظهرت في أقل البلدان رأسمالية وتقدماً هو روسيا القيصرية.. ولكن هناك أفكار صائبة.. حتى الأفكار التي يظن أنّه اخطأ فيها مثل التكتل والاحتكارات .. فنحن نجد حالياً في العصر الحديث اكبر صورة للتكتلات والاحتكارات التي تنبأ بها ماركس.. ويمكن تجاوزت ما تصوره .. فبالنسبة للمجتمع الأوروبي الذي لم ينعم بالإسلام.. ومسخت الكنيسة فيه المسيحية .. كانت الاشتراكية تقوم بدور إنساني وروحي كبير جداً .. ولذلك هناك عدد كبير جداً من النقابات .. لأن الحركة النقابية ومنظمات المجتمع المدني ومنظمات حقوق الانسان وحماية البيئة كما سنعلم هي أسلوب للعمل وليست عقيدة .. هي "تكتيك"، للعمل وليست عقيدة .. فكان فيها نوع من الخواء الروحي وكانت النتيجة أنّ عدداً كبيراً من أنبه القيادات النقابية في الولايات المتحدة، وفي بريطانيا آمنوا بالاشتراكية.. ننحن نقول إننا ننصف الاشتراكية .. والإسلام يتسع لكل الأفكار الرشيدة السليمة ويعتبرها منه.. والرسول صلى الله عليه وسلّم مرة قال : "نحنُ أولى به منهم .. بموسى .. يعني ليس هناك أكثر من هذا في الانفتاح والنزعة التحررية وفي قبول كل الفكر السديد كائناً ما كان وطبعاً الحديث يقول : «أطلبوا العلم ولو في الصين والحكمة تربة المؤمن ينشدها أنى وجدها » .. الإسلام مفتوح ويقر بأقصى الحرية بما فيها حرية أن يكون الانسان مؤمنا أو كافرا .. وليس عنده فكرة الدونية ، أو فكرة الانغلاق.

الله يقول لنا : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».. بمعنى أنّه لا يجبرك على الإيمان.. بل يترك لك حرية الاختيار بين الإيمان والكفر .. والله يقول أيضاً لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ».. الاسلام فضاء من الحرية القصوى واللا محدودة.. والعقاب في الاسلام ليس في الدنيا بل في الآخرة .. والله وحده لا شريك له هو الذي يحكم بين الناس من مختلف الأديان والعقائد يوم القيامة في ما كانوا يختلفون .. والإسلام فعلاً يقدّم نفسه تماما بأنّه الدين الحق، الدين النهائي .. الدين الذي استوعب كل الأديان .. مفيش مركبات نقص في الإسلام.. مفيش عقدة نقص في الإسلام .. ولذلك ليس عنده الاستعلاء ولا الدونية ومفتوح لكل الأفكار، ولكل الأنبياء، ولا نفرق بين أحد منهم .. الاسلام دين موضوعي كل الموضوعية .. فالموقف الإسلامي نحو الفكر الاشتراكي، هو الموقف السليم الذي لا يبخس الناس أشياءهم .. والذي يطلب الحكمة في كل ناحية والذي لا يحمل شنآنا على آلا تعدل.. ضروري تعدل .. وهذه قيم إسلامية أصولية ثابتة في القرآن، ومعززة بأعمال الرسول وكان يجب أن يكون هذا هو الموقف السليم .. وهو أنّ الاشتراكيين هؤلاء قاموا بدور " كويس" جداً.. وقتما نددوا بالاستغلال الرأسمالي.. وقتما فضحوا وعروا الوحشية الرأسمالية في استغلال الأطفال والنساء وغيره وغيره في الصناعات.

ما من شك في أنّ من يقومون بهذا العمل كانوا يقتربون من الاسلام .. وكانوا يقومون بدور ورسالة قام بها الإسلام وطالب بها الإسلام وقتما أوضحوا بأنّ رغيف الخبز مهم .. هذا هو ما يقوله الإسلام .. الإسلام لم يتجاهل مطلقاً قضية رغيف العيش.. « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .. يعني ما يمن به الله تعالى أنّه يطعمّ الناس من جوع وأنّ يؤمنهم من خوف .. والعامل عايز إيه أكثر من الرغيف.. وأكثر من الأمن؟!.. أنّ لا يكون مهدداً في حياته .. فكانت كل هذه الأفكار تكاد أن تكون إسلامية في حقيقة الأمر.

قضية الاشتراكية إذا كانت هي قضية عدالة فهي قضية الإسلام .. وهم أخذوها عن الإسلام.. وهم أما أخذوها عن الإسلام بطريق ما، أو اتفقوا مع الإسلام في النهايات، أما الوسائل فتلك قضية أخرى .. وماركس لم يتكلم عن ديكتاتورية البروليتاريا إلا « ثلاث حتت » عارضة .. الذي أوجد ديكتاتورية البروليتاريا هو لينين وهو الذي يحاسب حساباً عسيراً عن كل التطبيق الاشتراكي.. ماركس يمكن أن يكون أخطأ أيضاً بحكم حياته .. وبحكم ما تعرض له من اضطهاد وعقوق وما قاساه من ويلات ..كانت فيه مرارة جعلت بعض أحكامه تجاوز الموضوعية .. ولكن يعني ما نقدرش نحاسبه في حقيقة الحال .. وأنا لم أجد مثل هذا المفكر يحارب حرباً شعواء ويضطر أنّه يسكن في حجرة .. وأنّ أبناءه يموتون ولم يجد لهم كفناً.. وهو المتزوج أميرة من أسرة مالكة حاربت معه، وكافحت، وكانت جديرة بقصر

(وهنا يقهقه الأستاذ جمال البنا ضاحكاً ثم يقول) :

انتصاره الأول هو زوجته .. هذا أكبر انتصاراله ..كان يحبها جداً.. وهي كانت تحبه.. وتعبده رغم كل ما أثير حوله من موبقات حتى من الناحية الجنسية .. هي غفرت له .. فهمت الضعف البشري .. لم تكن متزوجة ماركس الإنسان الزوج، وإنّما ماركس المفكر .. ماركس الداعية .. غلبت هذه الفكرة فيها فكرة الزوجة.. فكرة الأنوثة.. فكرة انحراف جنسي من زوجها فهي لم تُعامل زوجها باعتباره زوجاً.. ولكن باعتباره مفكراً وداعية.

الإسلام لا يجبر الإنسان على الإيمان.. بل يترك له حرية الاختيار والمشيئة بين الإيمان والكفر .. إنه فضاء من الحرية القصوى واللا محدودة.. والعقاب في الاسلام ليس في الدنيا بل في الآخرة .. والله وحده هو الذي يحكم يوم القيامة بين الناس من مختلف الأديان والعقائد والملل والنحل في ما كانوا يختلفون .

(يتبع الاحد القادم)

نقلاً عن النسخة العربية من / Middle East Transparent